الترجمة وإشكالية التأصيل

منذر عياشي *

١- الترجمة التأصيلية:

لقد كان التأصيل في اللغة إشكالي الوجود، وهو لا يزال كذلك، لأن اللغة، كفاءةً وأداءً، تحتمل الشك، بل هي تطلبه وتسعى إليه حثيثاً، ومن هنا: فهي تحتاج حاجة أكيدة، وعلى الدوام، أن يتجدد علم طرح المسائل لكي يواكب الإشكاليات التي تطرحها، كما تحتاج في كل أزمانها إلى نظريات لسانية تدرسها وتستنبط من حدوثها قوانين حدوثها. وما كان ذلك إلا لأن قيامها، نظاماً وكلاماً، هو الممكن والمحتمل، وليس النهائي والمطلق. وأما لم كان هذا، فلأنها لو لم تكن كذلك لما كانت طاقة خلاقة، ولقصَّرت فتخلفت، ولوقفت إذن دون مستوى وجودها وما يقتضيه من إنجاز، فتدول وتزول.

والترجمة هي اللغة في شكلها، ومحتملها، وممكنها، وهجرتها، وتحولها، وانهدام اليقين فيها. ولذا، فهي إشكالية مثلها فيما يخص التأصيل. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يُحل جدل هذه القضية؟ وكيف يصبح التأصيل جزءاً من أدوات إنجازها لا جزءاً من مشكلاتها؟

قد يكون من المفيد أن نعود إلى بعض التعريفات التي يمكن أن نعطيها للترجمة، فننظر فيها، ثم نصنفها تبعاً لذلك تصنيفاً بسيطاً، إذ ربما يفتح لنا هذا مجالاً نتبع فيه سبلاً إجرائية هي من صلب التأصيل في الترجمة، مادام منطلقنا أن الترجمة هي لغة كذلك.

ويمكننا، وصلاً بمنطلقنا،ومستعملين لغة واصفة، أن نقول إن الترجمة، في تحديدها وتعريفها، إن هي إلا أسماء أو صفات أو تعبير عن أحوال. أما الأسماء، فهي التي ندل بها على الكينونة، مثل قولنا: «الترجمة لغة أو هي كائن لغوي»، و«الترجمة بناء»، و«الترجمة قراءة». وأما الصفات، فهي التي ندل بها على الوظيفة، مثل قولنا: «الترجمة التبليغية»، و«الترجمة الشعرية»، و«الترجمة التأصيلية» وأما التعبير عن أحوال، فمثل قولنا: «الترجمة فعل مستقل»، إلى آخره.

وإذا تأملنا هذه التحديدات والتعريفات من خلال التصنيف الذي وضعت فيه، فسنجد أنها تميل إلى أن تكون جواهرانية، في حين أن التأصيل ليس كذلك. ولذا، فإنه يصعب أن يتحقق هوية في هذا التصنيف. ولو أنه كان خلافاً لما نقول، لكان شأنه موصولاً، ليس باللغة وجوداً وحضوراً وتداولاً، ولكن بميتافيزيقا اللغة، وإذن لاستحال، والحال كذلك، أن يصير، فيكون، فيتعين.

إن التأصيل، كما نرى، لا يقبل التصنيف لأنه ليس ثباتاً في جوهر، ودواماً في وظيفة، واستمراراً في حال. وهو إذا كان لا يقبل التصنيف، لأنه يتنافى مع الجوهرانية ويتنابذ، إلا أنه يقبل أن تتنزل المفاهيم والمتصورات منازلها من الكلام تبعاً لأنظمة اللغة وسياقاتها التركيبية، كما يقبل أن يتنزل الكلام منازله

* كاتب، وباحث، وأكاديمي من سوريا يعمل في جامعة البحرين، نائب رئيس التحرير.

من السياقات غير اللغوية تبعاً لأنساق الحضور التي يرد فيها. وإذا كان التأصيل هو هذا، فلا ضير إن دخل إليه اختلاف ليس منه، أو إن صُنع فيه تباين ما كان يُعرف في مألوف استعماله أو يُرى في معتاد استخدامه. وكذلك، فإنه لا تثريب عليه أن يكون مثيلاً لشواذ اللغة فيقع فيها، إذ إن من أسس الترجمة وعمادها أن يقع في اللغة انفصال عن المطرد، وتباين مع المتسق، ونفور من المنسجم.

والخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها هي أن التأصيل لا يقبل التصنيف، والعلة في ذلك لأنه إجراء تداولي وليس كينونة جواهرانية. ولقد يدل على هذا، كما رأينا في الأعلى، دوران اللسان وقيامه على سياقين: سياق اللغة، وما به يكون الكلام نظاماً صوتياً، وتركيباً جملياً، ودلالة نصية. وسياق الكلام، غير اللغوي، وما به يكون الكلام نسقاً معرفياً، وثقافياً، واجتماعياً، وعلمياً، إلى آخره، أي ما به يكون الكلام حضوراً.

ولما كان التأصيل، لغةً وترجمةً، إجراء تداولياً فقد وجب أن يدور، بحكم التداول، في فلك المتصورات والمفاهيم.

وقبل أن نخوض في هذا الأمر، المهم، نرى أن نتقدم بملاحظتين:

- أما الأولى، فمفادها أن التأصيل، في الترجمة حصراً، ينقسم إلى قسمين، نصطلح على تسميتهما كما يلي:

١- تأصيل المؤصل.

٢- تأصيل المحصل.

والمقصود بتأصيل المؤصل هو ماله مثال في اللغة المنقول إليها إن على صعيد المفاهيم والمتصورات، وإن على صعيد المصطلحات، وإن على صعيد النظام اللغوي. وأما المقصود بتأصيل المحصل، فإنه تأصيل مشتق من مسماه. ولذا، فهو يكون على غير مثال في اللغة المنقول إليها، في الوقت الذي يكون فيه مؤصلاً في اللغة المنقول منها. ومن هنا فقد كان تحصيلاً، وسمي نقله «تأصيل المحصل». وإنه ليكون على صعيد المفاهيم والمتصورات، كما يكون على صعيد المصطلحات، ويكون أيضاً على صعيد اللغة بوصفها نظاماً. ونلاحظ أن هذا الضرب من التأصيل يحتاج إلى قدر لا بأس بها من الاتكاء على الطاقة الخلاقة للغة لابتداعه، وربما يحتاج كذلك إلى قدر لا بأس به من الخيال. ولعلنا سنشير إلى هذين الضربين من التأصيل لاحقاً.

- وأما الثانية، فإن العناصر الداخلة فيها تتواشج وكأنها بعض من بعض. وقد كانت هي هكذا لأن المفاهيم والمتصورات لا تقوم في الأذهان من غير لغة، ولأن اللغة لا تنقل ما في الأذهان إلى ما في الأعيان إلا عبر المصطلح ومن خلال النظام الذي تؤسس به لاستعمالها وكيفيات التعبير بها. ولهذا، فقد قيل: «إنه لا يمكن للفكر أن يوجد من غير لغة. فاللغة لا تستخدم للتعبير عنه فقط، ولكنها تستخدم في تكوينه كذلك. ولذا، فإن المغزى يذهب من المجموعات إلى العناصر، ومن الجمل إلى الكلمات، وإن المعنى ليتم ظهوراً بفضل نسق التعارضات بين مفردات لا تمتلك وجوداً ممتلئاً أو وضعياً»

(les Dictionnaires Marabout Université: La philosophie. Tom 1. 1972. Paris, P72).

وإذا كانت هذه الأمور بعضها من بعض، فإننا لغرض منهجي تقتضيه ضرورات العلم، عمدنا إلى تفكيكها. ثم إن الحديث عنها، في هذه الدراسة، لا يتسع إلا للعنصر الأول منها لأنه معني أكثر من سواه بإشكالية الترجمة.

٢- المتصورات والمفاهيم:

تُخرج الترجمة المتصورات والمفاهيم من أجسادها صوتاً وصيغاً، ومن نظهما عقلاً وعلماً، ومن أنساقها معرفة وثقافة لتلبسها أجساداً ونظماً وأنساقاً غيرها لا تمت بصلة إلى الأجساد والنظم والأنساق التي كانت فيها. وقد لا يخلو هذا المخاض الترجمي من جَرح، وثلم، وبتر، وعذابات بالنسبة إلى المفاهيم والمتصورات. كما لا يخلو هذا الأمر من مثيله حصولاً في الرحم الآخر للإنشاء والتلقي. فكم من متصور كان

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:44 AM Page 14

عسير الولادة عندما استعير له رحم غير رحمه، وكم من مفهوم كان صعباً أن يجد متنفساً أو فسحة لوجوده في غير أرضه. ولقد نعلم أيضاً كثيراً عن حالات الغربة والاغتراب التي تعيشها المتصورات والمفاهيم عندما تهاجر من لغاتها إلى لغات أخرى. فاللغة التي تستقبلها هي غير اللغة التي نشأت فيها، والعقول التي تتلقاها معرفة وثقافة، هي كذلك غير العقول التي أبدعتها.

ولقد نرى، علاجاً لما نحن فيه، أن نجعل الإجابة تدور في فلك سؤالين اثنين، يقتضيهما الدرس والتحليل. هذان السؤالان هما: ما هي المتصورات والمفاهيم، وما حدها؟ ثم كيف يمكن زرعها واستنباتها في أرض اللغة الثانية التي تحرث الترجمة فيها؟

- تحديد المتصورات والمفاهيم:

ترى بعض القواميس المتخصصة أن المتصورات هي المفاهيم، كما يرى بعض منها العكس من ذلك، بيد أن بعضها الآخر يميز بين المتصورات والمفاهيم. وإننا لنستطيع أن نقف على الحد الأدنى المتفق عليه في بعض القواميس الفلسفية واللسانية، وذلك من غير أن ندخل في جدل حول المتصور والمفهوم، فهذه ليست هي قضيتنا هنا.

أ- في الفلسفة:

- المتصور Le Concept

(مرجع سابق ص ٤١)

-Les Dictionnaires Marabout

«المتصورات مفاهيم مجردة، تقوم بعاتقها كلمات اللغة. وإنها لتدل بها إما على شيء مفترض أنه فرد مثل «الله» وإما، كما في الأغلب الأعم، على طبقة من الأشياء التي لا نقف فيها إلا على سمات تسمح بجعلها متماثلة (وهذا يعني إذن سمات التشابه: نستطيع أن نقول إن متصور العدل يحتفظ لنفسه بكل ما هو مشترك بين كل أفعال العدل). ولهذا، فإنه غالباً ما يتم التطابق بين المتصور والفكرة العامة (أي الفكرة التي تسمح بتصنيف الأشياء في جنس من الأجناس).

والجدير بالذكر أن هذا القاموس الذي يجعل المتصورات مفاهيم، لا يعرِّف المفاهيم ولا يأتي على ذكر لها.

Paul Foulquié: Dictionnaire de la langue - philosophique, Èd, PUF. 6 éd. Paris. 1992.P112.

يتحدث هذا القاموس عن «المتصور» بالمعنى العام كما يتحدث عنه بالمعنى الدقيق. أما عن المعنى العام، فيقول:

- «المتصور، بالمعنى العام، هو كل ضرب من ضروب التمثيلات».

وأما عن المعنى الدقيق، فيقول:

- «المتصور، بالمعنى الدقيق، هو صياغة المتصورات، أي الأفكار المجردة. وإنه ليتميز من التخيل».

والجدير بالذكر أن هذا القاموس إذ يجعل المتصور أفكاراً مجردة، فإنه يبعده في الوقت نفسه عن ميدان الأفكار العامة والأفكار الشخصية. و يعلل هذا الأمر بقوله: «إن المتصور مصطلح تقني من مصطلحات الفلسفة. وإنه ليختلف مع «الفكرة» التي تنتمي إلى اللغة العامة. ولهذا، فهو يمتلك معنى أكثر دقة. وكذلك فإن المتصور أكثر موضوعية. فأنا إذ أستطيع أن أمتلك فكرتي عن العدالة، فإن متصور العدل يعد مستقلاً عني، كما يعد خارجاً عن عقلي. ولذا، فإنه إذا كان لكل شخص أفكاره، التي تعد شخصية إلى حد ما، فإن المتصورات تعد غير شخصية».

- المفهوم La notion:

Paul Foulquié - (مرجع سابق. ص٤٨٢)

يميز فولكييه في قاموسه بين الاستخدام العادي والاستخدام الفلسفي. أما عن الاستخدام العادي، فإنه يقول:

- المفهوم هو «المعرفة الأولية التي نمتلكها عن شيء من الأشياء». وإنه ليرى من ذلك مثلاً «امتلاك

المرء مفاهيم في علم الهندسة».

وأما عن الاستخدام الفلسفي، فإنه يقول:

- المفهوم هو «الفكرة التي تشتمل على السمات الأساسية للشيء. ولقد يطلق المفهوم، خلافاً للفكرة، على أشياء الفكر العالية التجريد». ويضرب فولكييه على ذلك مثلاً، فيقول: «لدينا أفكار عن الإنسان، وعن السيارة، وعن البضاعة»، وكذلك لدينا «مفاهيم الحقيقة، والعدل، والزمن».

ب- في اللسانيات:

- المتصور

R. Galisson / D. Coste: Dictionnaire de didactique des langues. Èd, Hachette. Paris. 1976, P112-113.

يذهب بنا هذا القاموس مذهبين: الأول، ويتعلق بتعريف المتصور. الثاني، ويتعلق بجدل المتصور.

- تعريف المتصور:

المتصور هو «فكرة مجردة يمكن أن تطبق على تجارب أو على أشياء متنوعة، تمثل سمات عامة، مثل: متصور «الشجرة». إنه متصور مشترك بين كل أنواع الشجر. وكذلك متصور «البداهة»، ومتصور «السبب». ويجمع المتصور في طبقة واحدة عناصر تتسم بسمات عامة، من غير الأخذ بالحسبان اختلافات يمكن أن توجد بينها. وهكذا، فإن كل متصور يمثل سمات للتجريد وللتعميم: إن «التجريد» هو العملية التي نمر من خلالها من الواقع إلى المتصور، عازلين بوساطة الفكر ما هو غير معطى في الواقع على نحو منفصل... وأما «التعميم»، فهو العملية التي تقضي بأن تجتمع تحت متصور وحيد سمات عامة تمت ملاحظتها حول عدد من الأشياء المفردة، وإذا توسعنا بهذا المصطلح فسنقول التي تمت ملاحظتها على طبقة غير محددة من الأشياء الممكنة. وهكذا فإن مفاهيم التجريد والتعميم تتطابق بالتبادل، كما تتطابق مع المفاهيم المنطقية لفهم المتصور وتوسعه».

- جدل المتصور:

بعد هذا التعريف الفائض، يقوم هذا القاموس بنقلنا إلى جدل المتصور بين الفلاسفة وعلماء النفس واللسانيين. وإنه ليجعلنا نرى كيف تطرح قضية المتصور في إطار كل نفر منهم. وهذا أمر سيترك ظلالاً قوية وكثيفة، بالنسبة إلينا، في الترجمة وإشكالية التأصيل. إنه يقول:

«يرتب الفلاسفة وعلماء النفس المتصورات بشكل مختلف في حقول دراستهم. أما موقع اللسانيين منهم، فهو أكثر ضبابية. فإذا كان سوسير يصف المدلول بأنه متصور، فثمة آخرون يرون (حتى عندما لا يرفضون وجود دراسة لسانية للمعنى) أن مستوى المتصور يتميز من مستوى التنظيم الدلالي، ولا ينتمي إلى نموذج التحليل نفسه، فالقضية القديمة للعلاقات بين الفكر واللغة (التي أطلقها تشومسكي منذ وقت قريب مع الأعمال التي ولدت من القواعد التوليدية) ليست من دائرة اختصاص أستاذ اللغة، ولكنها تخصه مباشرة. ولن نذكر هنا إلا ببعض الأسئلة التي تطرحها هذه القضية. وليكن معلوماً بأن الأجوبة المشار إليها، ليست مقبولة على نحو عالمي:

- هل توجد متصورات من غير لغة؟ يلاحظ علماء النفس بشكل عام، أنه إذا كان لا يمكن للمتصورات أن تصاغ إلا بمساعدة اللغة، فإنها تستطيع أن توجد في العقل من غير داعم كلامي. ولقد أصر بياجيه، في أعماله الإبيستيمولوجية في علم الوراثة، أن يُظهر بأن اكتساب اللغة يتميز من اكتساب المتصورات. فالمتصورات، في حالات كثيرة، تسبق اللغة. ذلك لأنها تصاغ، أولاً، انطلاقاً من ترسيمات حسية - حركية، حتى وإن كانت اللغة تغني، فيما بعد، فكر الفرد.

- هل المتصورات عالمية، أم إنها تتعلق بالتنظيم اللساني وبتقطيع الواقع الذي تقترحه (وتفرضه؟) كل لغة من اللغات الطبيعية؟ وهل متصور «الثلج» هو نفسه بالنسبة إلى رجل من الإسكيمو ورجل من فرنسا؟ ثم،هل كان يمكن لأرسطو أن يفكر بالنسق الفلسفي نفسه لولا أنه كان يمتلك في اليونانية أنماطاً لسانية؟ وهل صحيح «أننا نفكر في عالم قد صاغته لغتنا أولاً»؟ لقد كانت هذه نظرة وورف على نحو خاص. ولكن

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:44 AM Page 16

مونان يقول: «إن الأطروحة التي تقطع اللغات بموجبها التجربة التي نمتلكها عن العالم بلا رحمة (هذه عبارة وورف) ليست صحيحة منهجياً إلا بالنسبة إلى مخطط التحليل التزامني» (١٩٦٣). فلقد ظهرت متصورات جديدة في الرياضيات وفي الفيزياء، في القرن التاسع عشر مثلاً، وذلك على الرغم من تصنيف المدونة المسبقة الوجود لهذه العلوم. ومن هنا، فإن العلاقات بين المتصورات، واللغة، والتجربة لا تقوم على نحو يفضي إلى نزعة تثبيتية أو إلى ضرب من عدم التواصل بين لغة وأخرى».

ونلاحظ أنه مهما تكن الفرضيات، فإن «التواصل بين لغة وأخرى» يظل ممكناً، بل يظل قائماً. وإن رهان الترجمة في هذا لا يقوم على أمر مستحيل. إذ ما من شيء يقوم في الأذهان ويعبر عنه اللسان، إلا ويجد سبيله، بطريقة ما، إلى القول بلغات أخرى. ولكن قبل أن نجيب كيف يكون ذلك، وهو مراد سؤالنا في الأعلى، فإنه يحسن بنا أن نستكمل عرضنا حول «المفاهيم» في اللسانيات بعد أن وقفنا على المتصورات فيها.

- المفهوم La notion

- R. Galisson / D. Coste 378-379
(مرجع سابق. ص (٣٧٨ - ٣٧٩).

يعرف هذا القاموس اللساني المفاهيم بقوله: «إن المفاهيم متصورات». وبهذا، فهو يعود بنا إلى المتصورات، غير أنه يضيف هنا إضافة مهمة تسير بنا إلى الأمام باتجاه الترجمة والتعامل مع المفاهيم في مساحات اللغة، سواء كانت أولى أم كانت ثانية. ولذا، فهو يقول عن هذه «المفاهيم - المتصورات»: «قد يحتاج المتعلم أن ينتجها أو أن يفهمها». وإننا لنعتقد أن المتعلم والدارس والمتكلم على حد سواء يحتاجون إلى إنتاجها وفهمها أيضاً، كل فيما جُعل له ميسراً. ويحدد هذا القاموس لحظة الإنتاج وكيفية الفهم فيرى أنهما لا تتمان إلا من خلال تحقق المفاهيم لسانياً. وهو يرى أن «الطريقة المتبعة لتحديد الأهداف والمضامين، تبع لنظام التسمية، فالمرء يذهب من المتصورات إلى الكلمات، ومن الفكر إلى اللغة».

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الوقوف على نظام التسمية والعمل بقوانين هذا النظام، كما أشرنا إلى ذلك في الأعلى، يفضي بنا إلى السؤال الثاني حول كيفية زرع المتصورات والمفاهيم واستنباتها في أرض اللغة الثانية التي تحرث الترجمة فيها.

- زرع المتصورات والمفاهيم واستنباتها.

يذهب بنا المجاز في هذا العنوان إلى الحديث عن نوعي التأصيل اللذين ألمحنا إليهما سابقاً، وهما: تأصيل المؤصل وتأصيل المحصل. ولقد نرى أن هذا التأصيل، مؤصلاً ومحصلاً، يقتضي إنجاز ثلاثة أمور:

- الأول، جعل غير المفكر فيه، على صعيد المتصورات والمفاهيم، مفكراً فيه. وهذا يقتضي إنجازه عقلاً وتحقيقه لغة.

- الثاني، ويسعى إلى استخدام العبارات الدالة على نحو خلاق، ليستطيع معه نظام التسمية أن يمتلك القدرة على إنجاز المتصورات والمفاهيم وإحلالها في مسميات محددة، وبذلك يتم استدعاؤها من خلالها. وإننا لنعلم أن أمراً كهذا يتعلق بشروط اللغة المنقول إليها وقوانين الضبط فيها.

- الثالث، ويستهدف إنجاز الوجود اللغوي نفسه. فاللغة نظام من القوانين، وليست مدونة من الألفاظ فقط. والترجمة بوصفها كتابة ثانية بلغة ثانية، فإنها تتعامل مع النظام لكي تعطي المسميات، ألفاظاً ومصطلحات، مدلولاتها.

وإذا كان التأصيل، زرعاً للمفاهيم واستنباتاً لها، رهناً بهذه الأمور وتبعاً لها، فيجب، قبل الدخول في التفاصيل والنظر فيها، أن نستبعد شبهة كانت تمثل قضية هامة من قضايا الجدل الفلسفي. ولذا نجدنا نقول لا تدخل قضية استنبات المتصورات والمفاهيم في إطار قضية قديمة حديثة (كما رأينا في طرح بياجيه الذي ألمحنا إليه في جدل المتصور) حول أسبقية الفكر على اللغة. فاللسانيات الحديثة قد حسمت هذه المسألة، ورأت أن لا شيء مما يقوم في الأذهان إلا ويجد ما يدل عليه في اللسان، بل رأت أن لا شيء يمكن

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:44 AM Page 17

أن يقوم في الأذهان إلا إذا ساهم اللسان في قيامه وإعطائه شكلاً ومضموناً، أو دالاً ومدلولاً. فاللغة تساهم، إذن، في صناعة الفكر عقلاً وهي تساهم في إعطاء هذا الفكر في اللسان شكلاً.

ولقد يجعلنا هذا نقول إن المتصور والمفهوم يبقيان، في هجرتهما نحو اللغات الأخرى، ملتصقين بداليهما (وهما مسماهما في اللغة التي هاجرا منها) إلى أن يستقرا، إن تأصيلاً أو تحصيلاً، في اللغة التي ينتقلان إليها (وهذه نقطة سيأتي تفصيلها). فما يؤخذ من لغة، يُسلَّم إلى لغة، ولا شيء يمكن أن يقع خارج اللغة أو بعيداً عن توسطها. ولقد يعني هذا أن المتصور لا يمكن أن ينفك عن دالة الأصل إذ يبدأ هجرته. فهو يبقى لصيقاً بداله، الذي كان عليه، في ذهن ناقله، إلى أن يأخذ سبيله في اللغة الأخرى سرباً، فيلبس، حينئذ، دالاً جديداً فيها يدل عليه. وكذلك شأن المفهوم والفكرة.

يدفعنا هذا إلى القول إن الترجمة تجديد للدال، ناهيك عن كونها تطويراً للمدلول أيضاً في بعض الأحيان. وإذا كان هذا هكذا، فكيف يساهم نظام التسمية في استحداث الدوال وصناعة المسميات للمتصورات والمفاهيم؟ وبقول آخر كيف يساهم في زرع المتصورات والمفاهيم واستنباتها في أرض اللغة المنقول إليها؟

٣- نظام التسمية:

يشتمل نظام التسمية على علمين من علوم الدلالة:

١- علم التسمية onomasiologie

٢- علم تطور دلالات الألفاظ sémasiologie

١- علم التسمية:

انظر: (Dictionnaire de linguistique. Èd, Larousse, Paris. 1943, P346)

يُعرَّف علم التسمية بأنه «الدراسة الدلالية للمسميات» وإنه «ينطلق من المتصور بحثاً عن العلامات اللسانية التي تناسب هذا المتصور».

وإذا كان هذا هو علم التسمية، فإنه ليجري، أثناء الترجمة، من غير أن يغادر المتصور أو المفهوم علامته أو داله في اللغة الأولى، وذلك كما ذكرنا. فإن عثر له المترجم أو الباحث اللساني على علامة أو دال، فإنه يُسكنه فيه، وإن تعثر ذلك، فثمة طرق أخرى تسمح بها اللغة، مثل العمل بعلم تطور دلالات الألفاظ.

ولكي نرى بإيجاز كيف ينجز علم التسمية تأصيله، فيجب أن نعلم أنه يعمد إلى إحدى طريقتين:

- فهو إما أن ينطلق من جوهر المضمون (أي المتصور وهذه طريقة هيلمسليف، وذلك لكي «يصل إلى شكل المضمون». والشكل هنا يمثل جملة «العلامات اللسانية التي تتناسب مع تقسيم حقل المتصور».

- وإما أن يسعى أول ما يسعى، حين يقف على المتصور إلى إنشاء البنى الخاصة بهذا المتصور. فالقرابة مثلاً، تشكل في كل ثقافة من الثقافات بنية بها تنتظم العلاقات بين الأفراد. وتقدم التراتب بين الأجيال، وبها تتحدد لهذه التراتبية تسميات معينة ومحددة. ولكي يتم للباحث ذلك، فإن القسمة الأولى التي يجريها تقوم على إنشاء تعارض بين الذكورة والأنوثة. وبذا يتأسس على هذا الأمر وجود خطين: خط الأبوة وخط الأمومة. وهكذا، فإن كلمة «أب» وكلمة «أم» لن تدرسا فقط من أجل الوظيفة اللسانية التي تؤديانها، سواء كان ذلك في إطار توزيعي:

أب الطفل.

هذا أبي.

إنه أب لصديقي.

(حيث يمكن لكلمة أب تظهر في كل سياقات التوزيع).

أم في إطار استبدالي:

الأب عظيم.

هذا أب عظيم.

(حيث يمكن لأل التعريف ولاسم الإشارة أن يتبادلا).

أم في إطار تعددية المعنى:

أب الرجل.

أب العلم.

أب الإنسان.

(حيث يتعدد معنى كلمة أب).

ولكنهما تدرسان بوصفهما دالين لسانيين يتناسبان مع دوال خاصة في تصنيف علاقات القربى.

٢- علم تطور دلالات الألفاظ:

(مرجع سابق. ص ٤٣٢).

يعرّف «علم تطور دلالات الألفاظ بأنه علم ينطلق من العلامة ذهاباً باتجاه تحديد المتصور» أو المفهوم.

ونلاحظ أن هذا العلم هو عكس علم التسمية، بيد أنه لا يتنافى معه وجوداً إذا ما احتيج إليه أثناء عملية الترجمة. ولقد يستطيع الباحث، للوقوف على المتصور، أن يمارسه في اللغتين: المنقول منها والمنقول إليها، ولسوف نرى في الأسفل كيف يكون ذلك.

ويعتقد الباحثون أن «الإجراء النموذجي لعلم تطور دلالات الألفاظ هو الإجراء الذي تتبعه المعجمية البنيوية. فهذه تهدف إلى تمثيل البنى (محور الاستبدال ومحور التركيب) التي تعطي بياناً عن الوحد المعجمية». ولعلنا نستطيع أن نضرب مثالاً على ذلك بكلمة «كرسي» وسنجد أن الإجراء في هذا العلم يقضي بدراسة الكلمة «تبعاً للمحيط (التوزيع) وتبعاً لمحاور الاستبدال التي تظهر فيها (منهج الاستبدال) وذلك قبل أن تحال إلى حقل معين للمتصور (مثل حقل الأشياء الصناعية. وحقل الأثاث، وحقل المقاعد)»، وحقل السياسة أيضاً. ولقد نعلم مما سبق أن النهاية في هذه الدراسة، أي الوصول إلى المتصور، تعد منطلقاً أو بداية للدراسة في علم التسمية.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن ما يجب أن يقال، بهذا الخصوص، هو أن هذين العلمين يلتقيان، بالضرورة، بل يلتقيان حتماً في نقطة من نقاط البحث. وإن الباحث ليسعى إلى هذا ويحض عليه.

ونستطيع، بياناً لطريقة عمل كل علم من العلمين، أن نمثل لانطلاقهما بتعاكس توجه السهمين في الترسيمة التالية:

علم التسمية ← ... علم تطور دلالات الألفاظ

المتصور ← العلامة ←→ العلامة ← المتصور ← العلامة

(علم التسمية: ↓ المتصور ← العلامة؛ علم تطور دلالات الألفاظ: ↓ العلامة ← المتصور)

ونلاحظ أن نهاية العلم الأول منهما (علم التسمية) تمثل بداية العلم الثاني (علم تطور دلالات الألفاظ)، والعكس صحيح أيضاً. ولذا نقول إنه إذا وقع التلاؤم بين المتصور والعلامة (بين الدال والمدلول) فيتم التأصيل وتنجز الترجمة مهمتها. وأما إذا تعثرت العملية (لأن الباحث في علم التسمية لم يجد العلامة الملائمة في اللغة التي ينقل إليها، من جهة، ولأن علم تطور دلالات الألفاظ لم يقف في مدونة ألفاظه على معنى قد تطور بحيث يماثل المتصور المقترح أو يطابقه، من جهة أخرى)، فحينئذ يكون اللجوء إلى الوسائل التي تتيحها آليات اللغة وتقنيات صناعة الألفاظ وتوطين المتصورات.

وأخيراً، فإننا بعد هذه الجولة في آفاق الترجمة والتأصيل وآفاق المتصورات والمفاهيم، وآفاق التسمية وعلم تطور دلالات الألفاظ، لا نزال، والبحث اللساني معنا، نحبوا في بداية الطريق. وليس هذا، كما نحسب، لأن النظريات، والمعارف، والتقنيات تنقص الباحثين، ولكن لأن الترجمة علم لا يمكن أن يُغْلَقَ بابُ الاجتهاد فيه. أما أسباب ذلك، فلأن اللغات، وهذا هو مراد استعمالها، في إبداع دائم. وإن أمراً هذا هو شأنه، ليحتاج من كل مستويات البحث أن تتجاوز نفسها، أو أن تعيد إبداع ذاتها على الدوام لكي تواكب إبداع اللغات، وبالتالي لكي تواكب إبداع الترجمات التي هي لغات تعيد اللغات فيها إبداع نفسها.

إن كل هذا يعني، في النهاية، أن التأصيل في الترجمة سيظل، لحسن حظ العلم والترجمة، اجتهادياً وإشكالياً. وإنه لولا ذلك لما استحق من كل الباحثين، وعلى مر العصور، كل هذا الجهد والعطاء العلمي.■